الحديث الرابع

عن المعرور بن سويد قال: لقيت أبا ذر بالرَّبَذَة وعليه حُلَّة وعلى غلامه حلة فسألته عن ذلك فقال: إنى سابيت رجلاً فعيرته بأمه فقال لى النبى ﷺ: «يا أبا ذر أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية، إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم». رواه البخارى ومسلم

راوى الحديث:

روى هذا الحديث عن رسول الله ﷺ أبو ذرّ الغفارى رضى الله عنه، واسمه جُنْدُب بن جنادة، وهو من السابقين إلى الإسلام، أعلن إسلامه بين يدى رسول الله ﷺ فى الأيام الأولى من عمر الدعوة الإسلامية، وتحدى قريشًا، فجهر بالشهادتين داخل المسجد الحرام، فثارت ثائرة المشركين، وضربوه ضربًا مبرحًا حتى سقط على الأرض، ولم ينقذه منهم إلا العباس عم النبى ﷺ الذى هددهم بانتقام قبيلة غفار منهم قائلاً لهم:

يا معشر قريش أنتم تجار، وطريقكم على غفار، وهذا رجل من رجالها إن يحرض قومه عليكم، يقطعوا على قوافلكم الطريق.

عاش - رضى الله عنه -، زاهداً فى الدنيا، داعيًا إلى دين الله، يحارب إسراف الأغنياء وترفهم، وإنفاقهم الأموال فى المظاهر الدنيوية الكاذبة.

توفى رضى الله عنه سنة إحدى وثلاثين أو اثنتين وثلاثين بالربذة قرب المدينة المنورة، ودفن بها.

المعنى الإجمالى

هذا الحديث درس من الدروس النبوية الرائعة التى ترشد المسلمين إلى طريق الخير والرشاد، وتأخذ بأيديهم إلى مواطن العزة، والقوة، والنصر، والغلبة، بَيّن فيه رسول الله ﷺ أن المسلمين إخوة يربط بينهم الإسلام برباط وثيق، لا فرق بين غنيهم وفقيرهم، ولا بين خادمهم ومخدومهم، ولا بين سيدهم ومسودهم، كل يؤدى دوره فى هذه الحياة كما أراده الله له، فهم يتكاملون، ويتعاونون، ويتساندون انقياداً لحكمة الله البالغة ﴿ ... نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ

فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

فلا ينبغي أن يتعالى غني بغناه، ولا يتجبر قوي بقوته، أو يدل صاحب سلطان بسلطانه، ولا يليق بمسلم أن يجرح شعور أخيه المسلم بكلمة نابية، أو يعيره بلونه، أو فقره، أو مرضه، أو عمله المتواضع، ما دام هذا العمل شريفًا، فقيمة الناس عند الله ليست بمظاهر الحياة الدنيا، ولكنها بالعمل الصالح، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وجدير بالمسلمين أن يكونوا متراحمين، يعطف غنيهم على فقيرهم، ويساعد قويهم ضعيفهم، ويبذل صاحب الفضل منهم فضله في وجوه البر، والخير، ويرؤف صاحب العمل منهم بمن يعملون تحت يده، فلا يكلفهم من الأعمال ما يرهقهم، ويثقل كاهلهم، وإن كلفهم بعمل يشق عليهم، عاونهم على أدائه، وساعدهم على إتمامه.

من المباحث اللغوية:

(الحُلّة) لباس من ثوبين. (سابَبت رجلاً) شاتمت – والتساب – التشاتم، والسَّبُّ – مصدر سبَّه يسبُّه.

(فعيرته بأمه) عيرته أى عبته، وتعاير القوم عير بعضهم بعضًا.

(... فيك جاهلية) جاء فى لسان العرب أن الجاهلية هى الحال التى كان عليها العرب قبل الإسلام من الجهل بالله ورسوله وشرائع الدين، والمفاخرة بالأنساب والكبر والتجبر وغير ذلك.

والجاهلية مأخوذة من الجهل أى الطيش والحمق كما فى قول عمرو بن كلثوم :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

(إخوانكم خولكم) الخول ما أعطى الله الإنسان من العبيد والخدم، ويطلق هذا اللفظ على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث، يقال: هؤلاء خول فلان.... أو الواحد خائل، وسموا بذلك لأنهم يتخولون الأمور أى يصلحونها.

(وليلبسه مما يلبس) الفعل (يلبس) مفتوح الباء، وماضيه مكسورها، (لَبِسَ يلبَس) ومصدره اللُّبْس... أى لبس ثوبًا ونحوه قال تعالى: ﴿ **وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ...** ﴾ [الكهف: ٣٠].

أما يلبس بكسر الباء فى المضارع وفتحها فى الماضى (لَبَس يَلْبِس) فمعناه خلط يقال لَبَس عليه الأمر أى خلطه قال تعالى : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ [الأنعام : ٩]

ملامح بلاغية :

الاستفهام فى قوله ﷺ (أعيرته بأمه؟) استفهام إنكارى توبيخى أى ما كان ينبغى لك أن تعيره بأمه .

(. .إنك امرؤ فيك جاهلية) التنكير فى جاهلية للتقليل أى فيك خصلة واحدة من خصال الجاهلية، أو بقية قليلة من خلالها .

وقد تقدم المسند على المسند إليه فى قوله : (إخوانكم خولكم) للاهتمام بشأن الأخوة، وواضح أن المقصود هو الحكم على خولكم بالأخوة .

وقوله : (جعلهم الله تحت أيديكم) يمكن أن يكون كناية عن القدرة، أو السيطرة أو الملك، ويمكن اعتباره استعارة تمثيلية استعيرت فيها صورة الشيء يضعه الإنسان تحت يده ويتمكن

منه، ويسيطر عليه لصورة هؤلاء الخدم أو العبيد، وهم تحت تصرفه، وطوع إشارته.

شرح وبيان

(سابت رجلاً) صيغة سابت تشعر أن السباب لم يكن من طرف واحد، بل كان متبادلاً بين هذا الرجل وبين أبى ذر - رضى الله عنه - فلما اشتد غضبُ أبى ذر عير هذا الرجل بأمه، ويؤيد ذلك ما جاء فى رواية مسلم عن المعرور بن سويد قال: مررنا بأبى ذر بالرَّبَذَة وعليه بُرْدٌ وعلى غلامه مثله فقلنا يا أبا ذر لو جمعت بينهما كانت حُلة، فقال: إنه كان بينى وبين رجل من إخوانى كلام، وكانت أمه أعجمية فعيرته بأمه، فشكانى إلى النبى ﷺ فلقيت النبى ﷺ فقال: يا أبا ذر إنك امرؤ فيك جاهلية قلت يا رسول الله من سبّ الرجال سبوا أباه وأمه قال يا أبا ذر إنك امرؤ فيك جاهلية هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم فأطعموهم مما تأكلون وألبسوهم مما تلبسون ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم[1].

(فعيرته بأمه) أى نسبته إلى العار، وفى رواية أخرى

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ٤ / ٢١٢.

(فقلت له يا ابن السوداء) (فقال لى النبى ﷺ يا أبا ذر أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية) فى هذه الرواية التى معنا اختصار لأن النبى ﷺ لم يقل له شيئًا إلا بعد أن شكاه الرجل إليه كما بينت ذلك رواية مسلم التى أسلفت.

وقد أنكر النبى ﷺ على أبى ذر أن يعير هذا الرجل بأمه، ويجرح شعوره، وينتقص من قدره، ويزرى بنسبه، لأن هذا لا يليق بالمسلمين ولا سيما كبار الصحابة.

وكان الأجدر به أن يترفع عن سب هذا الرجل ويعفو ويصفح، ويبدو أن أبا ذر رضى الله عنه، وهو بشر ليس معصومًا من الخطأ قد سيطرت عليه ثورة الغضب فلم يتمالك نفسه وسب هذا الرجل.

وقد اعتذر العلامة ابن حجر فى فتح البارى عن أبى ذر فقال: «ويظهر لى أن ذلك كان من أبى ذر قبل أن يعرف تحريمه، فكانت تلك الخصلة من خصال الجاهلية باقية عنده... وكان بعد ذلك يساوى غلامه فى الملبوس وغيره أخذًا بالأحوط، وإن كان لفظ الحديث يقتضى المواساة لا المساواة»(١).

---

(١) فتح البارى ١/١٠٨، ١٠٩.

ولا شك أن رسول الله ﷺ الذى لا ينطق عن الهوى يصدر فى هذه الآداب الرفيعة عن تعاليم القرآن الكريم، وقد نهى الله تعالى المؤمنين عن التنابز بالألقاب فقال: ﴿ ... **وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ** ... ﴾ [الحجرات: ١١].

أى لا يلقب بعضكم بعضًا بألقاب السوء التى تلحق بالمؤمنين ذمًّا، أو عيبًا، ويجد المؤمن منها فى نفسه.

وقد ذكر صاحب الكشاف أن هذه الآية نزلت فى ثابت ابن قيس، وكان به وَقْرٌ أى صَمَم، وكانوا يوسعون له فى مجلس رسول الله ﷺ ليسمع فأتى يومًا وهو يقول: تفسحوا لى حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ، فقال لرجل تنح فلم يفعل، فقال من هذا؟ فقال الرجل أنا فلان، فقال بل أنت ابن فلانة يريد ما كان يعير بها فى الجاهلية، فخجل الرجل فنزلت الآية فقال ثابت لا أفخر على أحد فى الحسب بعدها أبدًا[1].

وقد حكى القرطبى عن بعضهم أن الرجل كان يعير بعد إسلامه بكفره، فيقال له: يا يهودى يا نصرانى فنزلت الآية.

وقد ذكرنى ما حكاه (القرطبى) بما كانت تفعله وسائل

---

(١) الكشاف ٤/ ١٤.

الإعلام العراقية إبّان حربها مع إيران، فقد كانت تردد أنهم يحاربون الفرس عبّاد النار!!

ومعلوم أن الإيرانيين الحاليين مسلمون دخل أجدادهم الإسلام منذ مئات السنين والإسلام يهدم ما قبله، ويهدم العصبيات العرقية المقيتة. وهذه جاهلية حديثة تأبى إلا أن تطل برأسها فى القرن الخامس عشر من هجرة النبى ﷺ، يعير فيها مسلمون بكفر أسلافهم وعبادتهم النار.

وقد قيل إن هذا الرجل المسبوب هو بلال مؤذن رسول الله ﷺ ويظهر أن هذا قول ضعيف لا يعتد به؛ لأن ابن حجر أورده بصيغة التمريض (قيل)[1].

والذى يدل عليه سياق الحديث أن هذا الرجل كان عبداً مملوكًا.

(إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم) أى أن هؤلاء الخدم أو العبيد إخوان فى الدين ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾

[الحجرات: ١٠]

---

(١) فتح البارى ١/١٠٨.

فينبغي الرفق بهم ومعاملتهم معاملة حسنة كريمة.

قال ابن حجر... ويكون العبد الكافر بطريق التبع، ويؤخذ من ذلك أن العبد ولو كان كافراً، ينبغي معاملته معاملة طيبة؛ لأنه أخ في الإنسانية، وللمسلمين في رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة، فقد كان يعامل المخالفين في الدين بما يليق به من المعاملة الكريمة، وكثيراً ما كانت هذه المعاملة سبباً في إسلام هؤلاء المخالفين.

وقد قرأت في مجلة التضامن الإسلامي التي تصدر بالسعودية عدد ذي الحجة ١٤٠٨هـ أن هناك جماعة من العمال الكوريين غير مسلمين استقدمهم أحد رجال الأعمال السعوديين، فعملوا لديه فترة من الزمن ثم أراد ترحيلهم إلى بلادهم، دون أن يعطيهم أجورهم، فشكوه إلى المحكمة الشرعية بجدّة، فقضت بوقف ترحيلهم حتى تسلم إليهم أجورهم، فلما رأوا هذه العدالة الشرعية في الحكم الإسلامي، أخذتهم الروعة، ولم يغادروا المحكمة حتى أعلنوا إسلامهم ذاكرين أنهم يفتقدون مثل هذه العدالة الإسلامية في بلادهم!!

فهؤلاء العمال وإن افتقدوا المعاملة الحسنة من صاحب

العمل إلا أنهم رأوا عدالة الإسلام، وإنصافه، فامتلأت قلوبهم بحب هذا الدين، ودخلوا فيه فرحين مسرورين.

(.. فمن كان أخوه تحت يديه فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس) من في (مما) في الموضعين للتبعيض أي من جنس ما يأكله، ويلبسه.

وقد ذكر الإمام النووي في شرح صحيح مسلم أن الأمر بإطعامهم، وإلباسهم محمول على الاستحباب لا على الإيجاب، والأمر في هذا راجع إلى عرف البلدان والأشخاص، ومن أطعمهم مثل مطعومه، وألبسهم مثل ملبوسه، فقد فعل الأكمل والأفضل، وأجره على الله.

(ولا تكفلوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم) أي لا تكلفوهم أعمالاً شاقة لا يطيقونها ولا يستطيعون أداءها، فإن طلبتم منهم مثل هذه الأعمال التي تغلبهم، وتثقل كاهلهم، وتعجز قدرتهم عنها، فأعينوهم، وقدموا لهم المساعدة.

وفي هذا الحديث دعوة إسلامية رائدة إلى المحافظة على حقوق العمال، والرفق بهم، ومعاملتهم معاملة حسنة كريمة، ونبذ للتفرقة بين الناس بسبب لونهم، أو عملهم، أو وضعهم الاجتماعي، فكلهم لآدم وآدم من تراب.